ويعنينى فى هذا المقام أن أنبه الى فهم العقاد لشاعرية المازنى . وملاحظات العقاد الموجزة ذات مكانة عظيمة من الخصب والإيحاء . ويرجع موقفى الشخصى ـ إن شئت ـ الى أن العقاد تجنب ذكر لفظ الرومانسى . وهناك مولعون كثيرون بإدارة هذا اللفظ . وكل لفظ شديد الشيوع يستعمل فى معان متعددة متباينة ، ويكتنفه ـ من أجل ذلك ـ خطر شديد . ولكن العقاد كان يعلم أن المازنى يخلق أفكارا وعقائد وأذواقا مختلفة من الأنماط المعهودة لدى معظم القراء . المازنى الفنان يشق طرائق أخرى فى التصور والشعور ، ويتمتع بحرية فكرية هائلة ، ويتساءل أسئلة مثيرة عن الماضى والحاضر ، ولايقف عند الأجوبة الملقاة فى الطريق . عالم المازنى هو عالم من التجارب الجديدة فى دنيا الثقافة العربية . ذلك أن المازنى استطاع بفضل التربية والمطالعة أن ينتقل أجيالا بعد جيله . استطاع المازنى أن يتمثل العالم كما يتمثله الغربى . وإن كان يشعر به أحيانا شعور الشرقى . هذا التداخل من أشق فصول الأدب العربى الحديث وأجلها . وأوضح مايتميز به هذا التطلع والتوزع الحزن البادى على شعر المازنى . وقد يظهر هذا الحزن أحيانا فى شكل ابتسامة على شفتى الفنان .

وأدى الحزن دورا كبيرا حين هز النفوس الراكدة ، وعبر عن التردد بين ماض عتيق ومستقبل مريب ، فضلا على بعد المسافة بين اعتقاد الشاعر فيما يجب أن يكون ، وما هو كائن . شعر المازنى لايمكن بحثه بمعزل عن التقابل بين أنماط ثقافية متباينة . هذا هو دعاء العقاد . ذلك أن الحيرة لعبت بعقل المازنى . رأى جمهور المتذوقين ينظرون إلى الطبيعة نظرتهم الى زخرف الحياة والرياض فهاله ذلك . ورآهم يفكرون أحيانا فى خلق مجتمع جديد دون أن تنبثق هذه الرغبة من دنيا الطبيعة . وهاله الانفصال الرائع بين المجتمع من ناحية والطبيعة من ناحية ثانية . كانت فكرة الطبيعة لاتنفصل عن فوضى الأخلاق ومفهومها ، ولاتنفصل عن حركة الإنسان فى داخل المجتمع ، ولاتنفصل عن إحساسه أحيانا بالدهشة والسآمة . إن نظرة الشاعر الى الطبيعة تحمل فى ذاتها أمانة السعى الى الرقى ، ولايمكن أن تتسم بالسكينة والقنوع . وكان المازنى يتطلع إلى الطبيعة باحثا عن التقدم والازدهار . أراد المازنى ألا نجتلب التردد والاستياء من خارج الشعر ، وسعى الى أن يخلقه من داخل الشعر واستعاراته وصوره وعلاقاته المتوترة بين الأشياء .

كم كان العقاد نافذا حين استوقفنا عند العالم الذى يتألف منه شعر المازنى . عالم الغار ، والجبال ، والسحب ، والرياح ، والسفوح . هذه هى المادة الصالحة فى شعر